١

مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

والعبادةُ في اللغة: من الذِّلة، يُقالُ: طريقٌ مُعَبَّـــدٌ، وبَعيرٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّل، وفي الشرع: عبارة عمَّا يجمعُ كمالَ المحبَّةِ والخضوعِ والخوفِ. وقُدِّمَ المفعولُ ﴿ إِيَّاكَ ﴾ وكُرِّرَ؛ للاهتمام والحَصر، أي: لا نعبدُ إلاَّ إيَّاكَ، ولا نتوكَّلُ إلاَّ عليكَ. وهذا هو كمالُ الطاعة.

والدِّينُ كُلُّه يرجعُ إلى هذين المعنَيَيْنِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ وهذا كما قال بعضُ السَّلف: الفاتحةُ سِرُّ القرآن، وسِرُّها هذه الكلمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ فالأوَّل تبرُّؤٌ من الشرك، والثاني تبرُّؤٌ من الحَوْلِ والقوة، والتفويض إلى الله ﷻ.

وهذا المعنى في غيرِ ما آيةٍ من القرآن، كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ (٢)، وقال في سورة المُلك: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ ﴾ (١)، وقال في

(١) الفاتحة: ٥.
(٢) هود: ١٢٣.

سورة المزمل: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ [٢]، وكذلك في هذه الآية من سورة الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

ولهذا لا تصح صلاةُ مَن لم يقل ذلك وهو قـــادرٌ عليه.

كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ » [٣]، وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [٤] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ [٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [٦] قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَـــالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [٧] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [٨] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » [٩]

---

(١) الملك: من الآية ٢٩.
(٢) المزمل: ٩.
(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات، رقم ٧١٤.
(٤) الفاتحة: ٢.
(٥) الفاتحة: ٣.
(٦) الفاتحة: ٤.
(٧) الفاتحة: ٥.
(٨) الفاتحة: ٦، ٧.
(٩) مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٥٩٨.

ثم قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: والعبادةُ مقامٌ عظيمٌ يشرُفُ به العبدُ؛ لانتسابه إلى جناب الله تعالى. وقد سَمَّى الله رسولَه ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [2]، وقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [3]، فسمَّاه عبداً عند إنزال الكتاب عليه، وعند قيامه في الدعوة، وإسرائه به، وأرشده سبحانه إلى القيام بالعبادة في أوقاتٍ يضيقُ فيها صدرُه من تكذيب المخالفين، حيث يقول جلَّ شأنُه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [4]

أخي المسلم: لقد عرفت أن الدِّينَ كُلَّه يرجعُ إلى هذين المعنيين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ فهل حاسَبْتَ نفسَك - في عزمٍ ورُشدٍ - عمَّا يُحقِّق هذين المعنيَين في جميع أمرك؛ لتنعم بالاستقامة في دُنياك، والفوز في أُخراك ؟

وقد عرفت شرفَ العبودية، فكُن عبداً لله، ولا تكُن عبداً لشيءٍ سواه؛ فقد تَعِسَ مَن كان عبداً لغير الله، واستعِنْ بربِّك في جميع أمرك، وخُذ بالأسباب دونَ تواكلٍ أو قُعود؛ لتكون صادقاً في قولك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾، فالله وحده هو الذي يُعبَد، والله وحده هو الذي يُستعانُ به.

---

(١) الكهف: من الآية ١.
(٢) الجن: من الآية ١٩.
(٣) الإسراء: من الآية ١.
(٤) الحجر: ٩٧- ٩٩.

ولا تجعل الأمرَ يلتبس عليك وأنت تُعينُ غيرَك أو يُعينك؛ فأنت تُعينُ أو تُعان بعونِ ربِّك، فاعرف الحقَّ، وأخلص القصد.واعلم أنه لا حَوْلَ ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

اللهم إنا نعوذُ بك من أن نُشركَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه.

اللهم لا تَكِلنا - في أيِّ شأنٍ من شئونِنا - إلى أنفُسِنا، ولا إلى أحدٍ من خَلْقك، وأَعِنَّا - بفضلك - على ما يُرضيك عنَّا.

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

(١) الممتحنة: من الآية ٤.